القيصر إيفان الرابع (الرهيب)
ودوره في نهضة روسيا الحديثة (١٥٣٠ – ١٥٨٤)

أ.م.د سامي صالح الصياد
كلية التربية للعلوم الانسانية

المقدمة

كان القرن السادس عشر الميلادي قرن إطلاق العنان للقوة والتسلط والتوسع والنشاط الفكري غير المحدود، وفي هذه الحقبة ظهر قيصر روسيا إيفان الرابع الذي تعد مدة حكمه (١٥٣٣– ١٥٨٤) من أهم وأخطر الحقب في تاريخ روسيا الحديث، لما حفلت به من أحداث وتطورات سياسية كبيرة، تأتي في مقدمتها الحروب الروسية التي خاضها القيصر في الشرق والغرب والسيطرة على أراضي واسعة جعلت روسيا دولة كبيرة بمساحتها وإمكاناتها، دفعته إلى القيام بمجموعة من الإصلاحات الداخلية عّدت الاساس في رفع روسيا إلى مستوى الدول المتقدمة آنذاك.

ونظرًا لصعوبة الموضوع وشحّة مصادره لقلة الدراسات الأكاديمية عن تاريخ روسيا الحديث، ولاسيما عهد القيصر إيفان الرابع (الرهيب) الذي يعدُّ بعد جده إيفان الثالث (١٤٦٢–١٥٠٥)، واضع اللبنات الأساسية لبناء دولة روسيا الحديثة التي أضحت في عهده من الدول التي يحسب لها الحساب، ومع اهمية شخصية ايفان الرابع فان الباحثين لم يولوها ما تستحقه من اهتمام فحاولت التصدي لهذا الموضوع المهم وإن كان في بحث متواضع كي أشجع الآخرين لدراسة مثل هذه الموضوعات الجديدة التي تفتقر إليها المكتبات العراقية والعربية على حد سواء كونها لا تضم الا القليل من الدراسات الاكاديمية الجادة بل ان اغلب ما موجود فيها هم ذو طابع عام عن تاريخ روسيا الحديث معد للقارئ العادي والاكاديمي .

تناولتُ الموضوع على شكل محاور مفصلة، تحدثتُ فيها عن حياة القيصر إيفان الرابع، (ولادته ونشأته) ومن ثمَّ سيطرته على الحكم وتتويجه، ثمَّ حروبه في الشرق ضد خانيات قازان وأستراخان وسيبيريا والاستيلاء عليها، ثمَّ توجهه إلى الغرب لإيجاد منفذ لروسيا هناك، فكانت الحرب الليفونية (١٥٥٨–١٥٨٣)، فضلاً عن النظام الجديد الذي سمي "الابرتشنينا" وانعكاسه على السلطة، وكذلك تحويل الفلاحين في زمنه إلى أقنان، ثمَّ إنجازاته الداخلية كما تناولت صفات ايفان الرابع الذي كان يمثل الموضوع الاخير قبل الخاتمة. وتضمنت خاتمة البحث مجموعةً من الاستنتاجات التي خرجنا بها. الى جانب ملحق تفصيلي للامراء والقياصرة الذين حكموا روسيا حتى عام (١٩١٧) ، ولأجل توضيح تلك العنوانات سوف نأتي على تفصيلاتها من خلال صفحات البحث وكما يأتي :

ولادته ونشأته

جاء ڤاسيلي الثالث (١٥٠٥ – ١٥٣٣) بعد الأمير الكبير إيفان الثالث، وسار على خطى والده وتابع توحيد روسيا بضم إمارات أخرى مثل "سمولنسك" وجمهورية "بسكوف"، فأصبحت روسيا من الدول الأوربية الكبرى. وكان ڤاسيلي الثالث متزوجًا من امرأة ليتوانية أسمها "أيلينا غلنسكايا"، (أو هيلين غلينسكي)، وهي كاثوليكية المذهب. ويقال أن الكنيسة الأرثوذكسية لم تعترف بهذا الزواج. ومع ذلك، تمَّ زواج ڤاسيلي في يوم عيد الصعود في ١٥ آب ١٥٢٦، وأصبحت أيلينا زوجته الثانية بعد أن طلّق زوجته الأولى لأنها لم تنجب له أولادًا[١]، وولدت أول طفل للأمير ڤاسيلي في ٢٥ آب ١٥٣٠، وقد فرح به ڤاسيلي كثيرًا، واهتم به وحرص عليه، وأسماه "إيفان" تيمنًا واعتزازًا بأسم والده. إلا أن والده توفي في عام ١٥٣٣ تاركًا ابنه إيفان وعمره ثلاث سنوات ليكون أميرا كبيرًا اسميًا على روسيا بعد أن أوصى له بوراثة العرش، وعلى أخويه (يوري واندريه) والمسؤولين الآخرين(البويار والدفوريان والنبلاء) أن ينفذوا وصيته[٢].

ومع أن أيلينا غلنسكايا كانت من النساء الحاذقات البارعات، والمستبدات أيضًا . إذ أصبحت وصية على ابنها إيفان الرابع . إلا أن تدخل "البويار" (Boyars)[٣] في شؤون الحكم جعلها مقيدةً، بل عاجزةً عن اتخاذ أي قرار أحيانا[٤].

عاش إيفان الرابع طفولة غير سعيدة، إذ توفيت والدته في عام (١٥٣٨)، تاركةً ابنها البالغ من العمر ثمان سنوات، فشب يتيم الوالدين، وترعرع في ظل سيطرة البويار على الحكم، الذين أثاروا المنازعات والاقتتال بينهم من اجل السيطرة على موسكو[٥]، وأطلع في سن مبكرة على كل انواع الشقاق والانحلال بين البويار، وعرف سفك الدم والتملق، وتعلم منذ صغره عقاب رعاياه أو العفو عنهم. وفي هذه المرحلة تمَّ تعيين عناصر شرطة محلية لإخماد الجريمة التي كانت منتشرة خلال الفوضى التي رافقت سنواته عندما كان قاصرًا[٦].

وفي غمرة هذه المنازعات كاد الامير إيفان الرابع أن يكون مهملاً متجاهلاً بل محرومًا بائسًا في بعض الأحيان، على الرغم من ان البويار كانوا يعاملونه بحفاوة بالغة في العلن[٧]، ولما كان يرى ضروب الوحشية في كل مكان حوله، فإنه ظنّها أسلوبًا مقبولاً في السلوك آنذاك[٨]. فأظهر في شبابه تصرفات مختلفة عدّة في حياته، وأبرزها النزعة نحو الوحشية التي مارسها فيما بعد خلال مدة حكمه، فنشأ شابًا نكدًا متقلب المزاج متشككًا، واستمر على ذلك حتى بدأ نشاطه الفعلي في عام (١٥٤٤) عندما غضب على أحد زعماء البويار، وهو اندريه شويبسكي، ورمى به إلى كلابه، ففتكت به ونهشته من كل جانب، فأرهب البويار من حوله وتولى زمام الأمور في الدولة بشكل فعلي[٩]، وسعى إلى تحجيم نفوذهم ومعاملتهم بقسوة، ومنذ ذلك الحين سمي بـ "بالرهيب" (*Terrible*).

حكم إيفان الرابع:

بعد أن بلغ إيفان السابعة عشرة من عمره، تمَّ تتويجه قيصرًا على روسيا في السادس عشر من كانون الثاني (١٥٤٧)، بمبادرة من مطران الكنيسة الأرثوذكسية الروسية مكاري (*Makarii*)، وعُدَّ ذلك إصلاحًا حكوميًا كبيرًا، إذ حول لقب الأمير الكبير رسميًا إلى لقب "تسار" (*Tsar*)[١٠]، أي "قيصر". وكان أول أمير روسي يتخذ ذلك اللقب[١١]، بهدف تعظيم صورة تعظيم الحاكم ودلالةً على القوة والجبروت، فضلاً عن الصفة الإلهية للحكم[١٢].

بعد تتويج القيصر أمر بأن ترسل إليه نخبة من النبيلات العذراوات من مختلف أنحاء روسيا لاختيار زوجة له، فاختار انستاسيا زاخارينا (*Anastasia Zakhrina*)[١٣]، من بين أكثر من ألف فتاة لتكون زوجةً له، وهي أول زوجة من زوجاته السبع[١٤]، وتم حفل الزواج في الثالث من شباط (١٥٤٧) في كاتدرائية "سان سوفور" (المنقذ المقدس . *Saint-Sauveur*)[١٥]. وأصبح لقب أسرتها فيما بعد لقب أسرة حاكمة[١٦].

مرَّت روسيا في السنة ذاتها بما يسمى بالجفاف العظيم (*Great Drought*) الذي بدأ في ربيعها واستمر طوال الصيف، وأصاب الريف الروسي بخسائر هائلة، واجتاحت المدن الروسية، جراء ذلك، حرائق عديدة، ولاسيما مدينة موسكو، التي عانت من تلك الحرائق المدمرة التي وقعت في ٢١ حزيران (١٥٤٧)[١٧]. وكان ذلك الجفاف العظيم وحرائقه المدمرة واحدًا من أسوأ الأهوال التي مرَّت بها روسيا **خلال القرون الوسطى (العصور الوسطى)**. وسرت شائعات مفادها أن آل كلينسكي (أخوال القيصر) هم المسؤولون عن إضرام ذلك الحريق، مما ادى إلى انطلاق انتفاضة شعبية كبيرة في موسكو في شهر حزيران (١٥٤٧) أثرت تأثيرًا كبيرًا في مجرى الأحداث، مما دعا القيصر إيفان الرابع إلى الفرار إلى قرية "فوروبيوفا" (*Vorobyova*)[١٨].

قام الثوار باقتحام مبنى الكرملين مطالبين بتسليم آل كلينسكي، وتم قتل خال القيصر يوري كلينسكي وعدد كبير من خدمهِ، ونهبت جميع منازل البويار، وقتل جميع الأمراء الموجودون في الكرملين، وسيطر الثوار على موسكو عدة ايام، ولاقت الحكومة صعوبة كبيرة في قمع الانتفاضة، وكان لتلك الانتفاضة التي كان لها أصداء واسعة في أنحاء البلاد، مما دفع الفلاحين والأقنان إلى إضرام النار في منازل "الدفوريان"[١٩]، في مناطق عّدة وقتلوا أسيادهم[٢٠].

هدأت الأمور ورجع القيصر إيفان الرابع إلى الكرملين. وعلى إثر ذلك طالبت قطاعات واسعة من الشعب الحكومة باتخاذ إجراءات حاسمة تصب في تقوية النظام والأمن في البلاد وتقوية أجهزة الدولة،ولاسيما الجيش، وهذا لا يمكن ضمانه إلا عن طريق تعزيز الأوتوقراطية أو المركزية.

وبعد الانتفاضة بدأ إيفان الرابع يميل إلى إدارة البلاد مباشرة، فسعى إلى تشكيل مجلس مختار سمى "رادا" (*Rada*)، من أخلص الأشخاص، وشمل المجلس المطران مكاري وآل زخارين وقس كاتدرائية البشارة الأب سلفستر ، فضلاً عن عدد من البويار وسكرتيرو الدولة من المؤمنين بالإصلاح[٢١].

فضلاً عن ذلك، أجرى إيفان الرابع عددًا من الإصلاحات لتوطيد الاستقرار في موسكو، ومنها توسيع مواد الدستور واستخدامه على نطاق واسع، واصدار مجموعة قوانين اوسع من السابق أكدت على تطهير اجهزة الدولة الاداري. وساعدت تلك الاجراءات السريعة في تعزيز حكمه المطلق، وتشكلت فرق المشاة تدعى "سترلتسي" (*Strieltsi*)، وتجهيزها ببنادق طويلة زادت من قوة جيش موسكو وأسندته[٢٢]. وأنشأ في موسكو مصنعًا كبيرًا لصناعة المدافع سمي "دار المدافع". وكانت المدفعية الروسية قوة هائلة لا يمتلكها أي ملك من ملوك أوربا[٢٣]، فضلاً عن تطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية لجميع الإقطاعيين والملاكين العقاريين وأصحاب العقارات الموروثة[٢٤].

وفي الجانب الديني سعى المطران ماكاري إلى تقوية نفوذ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، واعطائها دورًا أكبر في شؤون الدولة. كما وضع مجلس الكرادلة المقدس على مدى جلستين في عام (١٥٤٧) قانونًا لرجال الدين يسري على كل الكنائس الروسية، فكان بمثابة رمز لتوحيد كل الشعب الروسي في دولة وطنية واحدة[٢٥]. إلا أن ذلك لم يدم، ففي عام (١٥٥٠) دعا إيفان الرابع أول جمعية وطنية من جميع أنحاء روسيا تضم شخصيات مهمة وكبيرة من نبلاء ورجال دين، واعترف أمامها بجميع الأخطاء التي ارتكبها قبل بلوغه سن الرشد، ووعد بأقامة حكومة عادلة رحيمة. ولعله كان تحت تأثير حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وما جاورها حينما أوعز إلى الجمعية الوطنية أن تدرس اقتراحًا بمصادرة أملاك الكنيسة لدعم الدولة. إلا أن الاقتراح رُفض، واتُخذ قرارٌ مشابه، استُردت بمقتضاه كل الأراضي المنقولة للكنيسة وغير الخاضعة للحجز، كما ألغيت كل الهيئات التي منحت للكنيسة حينما كان إيفان الرابع قاصرًا. ولم يعدُّ للأديرة حق حيازة اية ممتلكات من دون موافقة القيصر، مما أربك رجال الدين وأخافهم على مستقبل الكنيسة، فلم يهدأ بالهم إلا بعد أن عين إيفان الرابع الكاهن "سلفستر" مرشدًا روحيًا له، واتخذ منه ومن "الكسيس ادا سيف" وزيرين له، فكانا بمثابة المعاونين الوزيرين اللذين يدبران الامر معه[٢٦].

ومن اجل تلبية مطالب الشريحة العظمى من الطبقة الحاكمة، ولاسيما "الدفوريان"، شرعت الحكومة إلى إجراء العديد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية المهمة لغرض التغلب على التبعات الناجمة عن حكم البويار وتعزيز مكانة الدفوريان، إذ وزع إيفان الرابع أراضي ضواحي موسكو على الملاكين العقاريين من أخلص دفوريان الريف، وبذلك شكل هؤلاء فئة "دفوريان موسكو العليا"، وأصبحوا يخدمون في فوج القيصر وحاشيته، وكانوا ألف مقاتل يعيشون في ضواحي المدينة، وأصدر فيهم قانونًا يقضي بتوزيع الأراضي عليهم على شكل مئة "ربع" يقدم من يستلم الارض مقاتلاً مجهزًا للحرب، ويمكن منحهم ثلاثمائة ربع في مكانات متعددة مقابل تقديم ثلاثة مقاتلين[٢٧].

أما في الجانب الإداري فقد نمت بدايات أجهزة الإدارة المركزية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، فتحولت بفضل إيفان الرابع إلى نظام متكامل من الدوائر (يسمى نظام البريكازي Prikazi). وتقوم هذه الدوائر بإدارة الشؤون العامة للدولة. فكانت دائرة السفارات تدير شؤون السياسة الخارجية، ودوائر الشؤون العسكرية تدير شؤون الجيش، أما دائرة العقارات فكانت تمارس توزيع العقارات التي وهبها القيصر للدفوريان[٢٨].

خضع جهاز الإدارة الإقليمية لعملية إصلاح كبرى، وأهمها دائرة الأرقّاء التي كانت تدير شؤون الفلاحين والأرقّاء، ودائرة الدخل الكبير التي كانت تمارس جباية الضرائب، لأن حكام الأقاليم أو ما يسمّون (خلفاء الامير الكبير) كان يتم تعيينهم من موسكو سابقًا، ولم يتسلموا مرتباتهم من الدولة، بل كانوا يقتاتون على حساب الضرائب التي يفرضونها على السكان، ولم يكونوا يقدموا في الغالب للحكومة سوى القليل منها. إلا أن إيفان الرابع أحال جباية هذه الضرائب وإدارة الحكم إلى عمدات الدوائر الريفية (المنتخبة) في الأقاليم الريفية، وإلى الرؤساء المنتخبين في المدن، فكانت تلك الدوائر في الوقت ذاته هيئات قضائية للسكان الذين تشرف على إدارتهم، لذلك كان رؤساء الدوائر يسمون "القضاة"، واغلبهم من البويار ذوي الصلاحية المحدودة[٢٩]. وكان هؤلاء مسؤولين أمام الحكومة المركزية التي كان عليهم أن يقدموا تقارير نصف سنوية لها.

قام القيصر إيفان الرابع ببرنامج لزيادة ملكية الحكومة للأراضي وسيطرتها عليها أيضًا، ففي هذا البرنامج الذي أسسه جده الامير إيفان الثالث في ثمانينيات القرن الخامس عشر، صادرت الحكومة الأراضي المستغلة بصورة سرية من قبل النبلاء في المدن وضّمها الى ملكية الدولة ، ومن ثم حولها إيفان الرابع إلى الفرسان الذين تعهدوا بخدمة القيصر بصورة مستمرة، وأيضا صودرت أراضي في موسكو من أمراء البويار ونبلاء أدينوا بالخيانة[٣٠].

وفي عام (١٥٥٦) مارس إيفان الرابع سيطرته على البويار والأمراء الذين لا يزالون يمتلكون أراضي خاصة في موسكو عن طريق مطالبتهم هم وجنودهم العبيد الخاصين بالخدمة في سلاح الفرسان (الخيالة) أيضًا، وعن طريق إجبارهم بالانخراط في الخدمة العسكرية، وبذلك أزال استقلالية النبلاء والأمراء الروس.

أما الطبقة الدنيا، وهم الفلاحون الذين يشكلون معظم سكان البلاد، فقد ازداد مصيرهم سوءًا خلال عهده، إذ أصبحت مساحات كثيرة من الأراضي التي نقلت إلى رجال الخدمة العسكرية أراضي تابعةً للدولة يعمل فيها فلاحون أحرار. ومع دخول مالك الأرض، الذي أرهق نفسه بالالتزامات العسكرية تجاه القيصر، لاقى الفلاحون العديد من القيود والمزيد من المطالب. وقد حوّل هذا الوضع والنظام تدريجيًا الكثير من الفلاحين إلى أقنان مرتبطين بالأراضي التي حرثوها. وأصدر إيفان الرابع مرسومًا منع بموجبه أغلب الفلاحين في أراضي الخدمة العسكرية من التنقل من أراض إلى أخرى، وفرض عليهم أن يقضوا حياتهم في هذه الإقطاعية من الأرض لا غير، وبذلك تحول الفلاحون، دون أن يشعروا، إلى أقنان مرتبطين بالأرض، يباعون ويشترون معها[٣١].

كما قام القيصر إيفان الرابع ايضًا بأعمال عمرانية واسعة باستخدام الفنيين والمهندسين الالمان والفنانين الايطاليين لتطوير موسكو الجديدة وبنائها. فضلا عن ذلك أنه سعى الى توسيع الرقعة الجغرافية لروسيا في الشرق والغرب وكما يأتي:

أولا: التوسع الروسي نحو الشرق

اتبع إيفان الرابع سياسة توسعية خلال حكمه كانت تهدف إلى ربط بحر البلطيق ببحر قزوين، ولذلك خاض حروبًا توسعت بنتيجتها أراضي روسيا لتصبح إمبراطورية مترامية الأطراف. ومن أهم تلك الحروب هي:

١- ضم إمارة قازان، واستراخان: ظلت العلاقة بين روسيا وإمارة قازان[٣٢] متوترة، بسبب استمرار الغارات المتبادلة للسيطرة على العبيد. وكانت قوة الطرفين غير متكافئة، فروسيا قوية وتسليحها حديث، وقازان ضعيفة وتسليحها قديم، كما أن روسيا أصبحت في هذه المرحلة دولةً كبيرة مترامية الأطراف، ولاسيما بعد تولي إيفان الرابع الذي كرس جهده لضم إمارة قازان إلى روسيا بشكل كامل، لأنه كان على يقين أن أمن روسيا ووحدتها يتطلبان امتلاكها هذه الأجزاء، والتحكم في نهر الفولغا حتى منابعه[٣٣].

وقع سياسيو إمارة قازان بأخطاء عديدة شجعت إيفان الرابع على الإقدام في حربه، وبالتالي ضم قازان إلى روسيا، من أهمها[٣٤]:

أ- تمثل الخطأ الذي ارتكبه سياسيو إمارة قازان تجاه موسكو أن سياستهم العدائية تجاه روسيا لم تكن تصبُّ في تقوية الإمارة، إذ أن أراضي وسط الفولغا التي كانت بيد إقطاعيي قازان كانت معتمدةً اقتصاديًا على روسيا في الحصول على الحبوب والبضائع المصنعة. وبقطع هذا الرابط الاقتصادي أضرَّ خانات قازان بقازان نفسها.

ب- إن الصراع على السلطة بين الجماعات الاقتصادية المتعددة اسهم في ضعف الإمارة، فمنهم من كان يؤيد روسيا، ومنهم من كان يؤيد القرم والدولة العثمانية (الدولة المسلمة).

ج- إن الحروب المستمرة بين الإقطاعيين على ملكية الارض من جهة، والانتفاضات الشعبية المستمرة من جهة أخرى، أوهنت سلطة قازان السياسية والاقتصادية.

بدأ القيصر إيفان الرابع بعدة إجراءات عسكرية بغرض تهيئة الامر للسيطرة على قازان أهمها[٣٥]:

١- أمر ببناء قلعة "سفياجك" (*Sviyazhsk*) بالقرب من قازان عند مصب نهر يسمى "سفياكا" (*Sviaga*) في عام (١٥٥١)، وتمركزت القوات الروسية الرئيسة حولها فأصبحت حصنًا يستخدم قاعدة انطلاق لحملة قادمة على قازان.

٢- أمر ببناء مدينة كاملة من الخشب ونقلها إلى مقربة من قازان عن طريق الاكلاك والاطواف.

كانت تلك الإجراءات العسكرية مصحوبة باستعداد عالٍ للجيش الروسي والتهيؤ للدخول إلى مركز الإمارة، ففي عام (١٥٥٢)[٣٦] قاد القيصر بنفسه حملة عسكرية كبيرة تتكون من (١٥٠) ألف مقاتل روسي مجهزين بأحدث الاسلحة، وحاصر المدينة لنحو شهرين، إلا أن القوات المسلحة القازانية، المتكونة من (٣٠) ألف مقاتل مسلحين بأسلحة بسيطة وقديمة، تصدت للهجوم الروسي وصمدت أمامه بعناد بدافع حماسة الروح الاسلامية ، فضلاً عن إتباعهم نظام (الكر والفر)، وقيامهم بغارات متكررة على

القوات الروسية[٣٧]. وأدى خان القرم "ديفيلت كيربي" دورًا في إعاقة تقدم القوات الروسية بهجومه على روسيا من الجهة الجنوبية، وكان ذلك بأوامر من السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦).

في خضم الصراع بين الجيشين وقعت مجموعة من المقاتلين القازانيين أسرى بيد الروس، فرُبط بعضهم على أعواد المشانق أمام أسوار المدينة، فسدّد أخوانهم المدافعون السهام اليهم صائحين: "خيرٌ لهؤلاء الأسرى أن يموتوا بأيدي بني وطنهم النظيفة من أن يهلكوا بأيدي النصارى المدنسة"[٣٨].

وكذلك أمر إيفان الرابع بقطع انبوب الماء الذي كان يزود مدينة قازان بالماء[٣٩]، وسعى إلى حيلة جديدة شدّ بها عزيمة مقاتليه، حينما طلب صليبًا كبيرًا جدًا عرضه أمام جنوده لشحذ هممهم، فثارت حماستهم من جديد، فاندفع الروس إلى داخل المدينة صائحين "الله معنا"[٤٠].

أدى ذلك إلى إضعاف عزائم المقاتلين القازانيين واستسلام القوات القازانية بعد مقاومة عنيفة، ولاسيما في مناطق الغابات. وفي عصر يوم ٢ تشرين الثاني (١٥٥٢) تحقق النصر للجيش الروسي، وأمر إيفان الرابع برفع جثث القتلى من شوارع المدينة، وأقيم موكبٌ دينيٌ غنى فيه الجميع نشيد (*The Deum Laudamus*)[٤١] الشهير، ورفع القيصر الصليب في المكان الذي كانت ترتفع فيه راية المسلمين القازانيين الرئيسة، ورفع القائد العام للجيش الروسي الأمير ميشيل فوروتنسكي رسالةً إلى القيصر جاء فيها: "هنيئًا لك أيها القيصر البالغ التقى، فبفضل مكانتك وحسن حظك حققنا النصر وغدت قازان لنا. إن الأمير ايدجير [امير قازان] بين أيدينا والناس بين قتيل وأسير، وقد جمعنا من الكنوز ما لا يعدُّ ولا يحصى، فبماذا تأمرنا الآن؟"[٤٢]. وروى ديورانت أن القيصر إيفان الرابع ذرف الدموع مدرارًا حسرةً على القازانيين المغلوبين قائلاً: "إنهم ليسوا مسيحيين، ولكنهم رجال"[٤٣]، ويقال أيضا انه أسكن فلول المسيحيين في الأطلال، وقد أجبر ذلك أمير قازان إلى عقد اتفاق مع القيصر نصَّ على: (١) إطلاق سراح الأسرى الروس في إمارة قازان، وكان عددهم نحو ستة آلاف أسير؛ (٢) تعيين (شاه علي ، شيكالي)، وهو أمير تتري مسلم كان مواليًا للروس، أميرا على قازان.

وهكذا بدأت روسيا تفرض الموالين لها على إمارة قازان، ولكن تلك الحالة لم تدم، إذ كانت قازان تقاوم الروس دائمًا. فمثلاً، بعد أن ترك الروس حاميةً في قازان ثار القازانيون على الامير شاه علي وطردوه من إمارتهم[٤٤]. وبالنتيجة، أصبحت إمارة قازان تابعة لروسيا، وقام القيصر إيفان الرابع بعّدة إصلاحات فيها، أهمها: انه لم ينتهج سياسة تمييز طائفي أو ديني بين المسلمين والنصارى فيها، إلا أن المقاومة الإسلامية أجبرته على دعم ومساندة النصارى هناك، إذ بدأ يعمل على محاربة المسلمين بأسلوب جديد، فقام ببناء مطرانية جديدة أغدق عليها اموالاً طائلةً كثيرة، فضلاً عن أنه سمح بعمليات التنصير (التبشير) بشكل أوسع، وبنى مدينة "**سماري**"، وهي مخصصة للنصارى.

كان لضمّ إمارة قازان[٤٥] إلى روسيا نتائج مهمة جدًا أهمها: أن الاستيلاء على إمارة أستراخان بات أسهل، وكان للاستيلاء على خانيتي قازان واسترخان نتائج مهمة أهمها:

١- الاستيلاء على سيبيريا والقوقاز[٤٦]: أصبحت قوات إيفان الرابع قريبةً من الحدود السيبيرية التي كانت تعاني حالة من التدهور والتحلل ، إذ كانت أسرة ستروغانوف المعروفة بنشاطها الصناعي ، تسعى لطلب موافقة إيفان الرابع في الحصول على فصائل مسلحة من القوازق برئاسة (اتامان)[٤٧]، وكان أهم تلك الفصائل بقيادة اتامان اسمه يرماك[٤٨] لحماية مصالحهم ، وفي احد الايام قاد يرماك فصيلهُ وذهب لمحاصرة سيبيريا، وكان خان سيبيريا في ذلك الوقت اسمه كوتشوم، وفي هذه المرحلة كان الروس اقل عددًا من المغول إلا انهم كانوا افضل تسليحًا ، فقد كانوا يستخدمون المدافع والاسلحة النارية ، بينما كان المغول يستخدمون السيوف والرماح والسهام ، فتقدم الجيش الروسي إلى سيبيريا وتمكن بعد حرب سريعة من الاستيلاء عليها[٤٩].

يعدُّ هذا مكسبًا كبيرًا لروسيا، لأن سيبيريا، فضلاً عن سعة مساحتها، كانت غنيةً بالخامات ولاسيما الملح والفراء، بل كانت تغري بثرواتها كالحديد والذهب، وغاباتها الكثيفة جدًا التي تسمى **(التابغا)** ولكثافتها دعت الكثير من الفلاحين اللجوء إليها والتحصن بها [٥٠]هربا من جور الملاكين واجهزة الدولة . كما أصبح نهر الفولغا قناةً روسيةً[٥١]، حتى أن القيصر، عندما انتصر الروس، فرح جدًا بالنصر وأرسل إلى "يرماك" هدايا ثمينةً، كما أرسل له فصيلاً عسكريًا لمساعدته.

وبعد سيطرت القوات الروسية على سيبيريا انتهج إيفان الرابع السياسة الاستيطانية التي استخدمها في الإمارات التي استولى عليها[٥٢]، وبدأ بمساعدة رجال الدين النصارى على نشر ديانتهم هناك بين الأديرة والكنائس.

٢- بعد الاستيلاء على تلك الخانيات والإمارات، انضمت منطقة القوقاز[٥٣] إلى روسيا بإعلانها الولاء للقيصر.

٣- تحول طابع الدولة الروسية من دولة ذات قومية واحدة إلى دولة متعددة القوميات والأديان، أي أنها أصبحت إمبراطوريةً فعليًا وليس اسميًا[٥٤].

وعلى الرغم من استيلاء إيفان الرابع على سيبيريا، إلا أن حرب العصابات استمرت فيها، ولم تضم بشكل كامل إلى روسيا إلا في عهد "بوريس كودونوف" (Boris Godunov)[٥٥] في عام (١٥٨٦)، بعد أن قتل يرماك الذي كان نائمًا على ضفاف نهر برتش، إذ هرب لئلا يقتله المغول، فقفز في النهر وهو يرتدي ملابسه الثقيلة فغرق في النهر. (قُتل بينما كان نائما، أم غرق نتيجة وزن ملابسه الثقيلة؟)

وهكذا ضمَّ القيصر إيفان الرابع الإمارات الإسلامية (قازان، أستراخان، وسيبيريا) الواقعة بين موسكو وجبال الاورال من جهة الشرق وبحر قزوين جنوبًا، ولم يبق أمامه سوى بعض الأقسام الجنوبية وشبه جزيرة القرم. وأصدر أمرًا يحرمِّ اعتناق أي دين يخالف الكنيسة الأرثوذكسية، كما فسح المجال لنشر المذهب الأرثوذكسي في قرى المسلمين ومدنهم[٥٦].

ويبدو أن الهدف الرئيس لإيفان الرابع في احتلال الإمارات الإسلامية هي حرب ضد الاسلام ومحاولة القضاء عليه هناك، ولاسيما أن إيفان، بعد أن استولى على قازان، استخدم سياسةً وحشيةً ضدهم

في أمرين مهمين هما: هدم المساجد عمدًا، وملاحقة علماء المسلمين وحرمانهم من امتيازاتهم. لذلك اتسمت المقاومة المسلحة في قازان بطابع ديني استمر حتى عام (١٥٦٠).

شكّل ذلك كله نقطة تحول وانعطافة تاريخية في العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية التي كانت وقتذاك تمثل طليعة العالم الإسلامي. وبهذا بدأ الصراع السياسي والعسكري الذي استمر حتى سقوط الدولة العثمانية[٥٧].

بعد أن سيطر إيفان الرابع على إمارات الشرق توجه نحو الغرب للبحث عن منفذ على بحر البلطيق، فبدأ بافتعال الذرائع للتوسع باتجاه الغرب.

ثانيًا:التوسع في الغرب

١ـ الحرب الليفونية (المرحلة الأولى):

انضم في عهد إيفان الثالث سكان مناطق الحدود من ابناء الإمارة الليفونية الكبرى إلى روسيا، وصارت الإمارات الواقعة في اعالي نهر "اوكاودفينا" تحت سلطة أمير موسكو الكبير، ثمَّ ضُمَّت إمارات ريزان وبسكوف وسمولنك في عهد قاسيلي إيفانوفيتش (١٥٠٥ – ١٥٣٣)[٥٨].

وحينما جاء إيفان الرابع إلى الحكم، وبعد تأمين الجهة الشرقية لروسيا، كان أمامه خياران للتوسع: (١) إما أن يغزو ويضم شبه جزيرة القرم، التي كانت تتعرض لهجمات روسية وبولندية مستمرة من اجل الحصول على العبيد، أو (٢) معاودة غزو الأراضي السلافية الواقعة إلى الغرب، والتي سبق أن ضمتها كل من ليفونيا وليتوانيا وبولندا، وبسبب تبنيهم وضعًا دفاعيًا تجاه خانية القرم (التي ثبت أن روسيا غير قادرة على ضمها ودعم الدولة العثمانية لها)[٥٩]، اتجه إيفان الرابع إلى ثاني أهم واكبر مشكلة في الغرب، ألا وهي الصراع من أجل منفذ على بحر البلطيق لتأمين التجارة مع أوربا، فوجد مؤيدين أشداء من الدفوريان الموالين الذين كانوا متعطشين لأراضي مأهولة تصلح أن تكون إقطاعيات خاصة بهم، وكذلك مؤيدين من بين التجار المهتمين بالتجارة مع الغرب، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى بدت الأوضاع السائدة في منطقة البلطيق في خمسينيات القرن السادس عشر في صالح خطط إيفان الرابع ، فكانت ليفونيا . التي مزقتها النزاعات الإقطاعية . تسيطر على سواحل البلطيق الشرقية، فأصبحت خلال القرن السادس عشر دولة ضعيفة، إذ تقاسم فرسانها[٦٠] ورجال الدين الألمان فيها الأقاليمَ فيما بينهم ، وقد استغل هؤلاء الليتوانيين والاستونيين من سكان ليفونيا الاصليين ببشاعة ، وأُضيف على ذلك الاستغلال اضطهادٌ طبقيٌ ، فكان من الطبيعي أن يرنو الليتوانيون والاستونيون إلى روسيا بوصفها القوة الوحيدة القادرة على تحريرهم من الإقطاعيين الألمان[٦١].

ومن الأسباب المباشرة التي دفعت إيفان الرابع إلى اجتياح الإمارات الليفونية أن مدينة "بوروييف" كانت تدفع الجزية لروسيا في عهدي إيفان الثالث وقاسيلي الثالث، ولكنها رفضت دفع الجزية لإيفان الرابع، فاتخذ هذه الحادثة حجة له، حتى أنه رفض مقابلة الوفد الذي جاء لمقابلته وأعلن استعداده

الحرب[٦٢].

بعد عودة الوفد الليفوني (اليوريفي) بمدة قصيرة، وتحديدًا في كانون الثاني (١٥٥٨)، حرَّك إيفان الرابع جيوشه وخاض حربًا ضد الليفونيين سميت "الحرب الليفونية"، التي حقق الجيش الروسي فيها انتصارات كبيرة؛ إذ كان أول جيش يرسل إلى ليفونيا بقيادة "شاه علي" (الذي كان خان قازان في حينه)، فاجتاح الجيشُ البلاد بطريقة وحشية، وأحرق الدور والمزارع، واستعبد الرجال. واستمر الجيش الروسي بالتقدم، مما دعا ليفونيا إلى الاستنجاد بكل من بولندا والدنمرك والسويد وألمانيا[٦٣].

احتل إيفان الرابع المناطق المتاخمة للبلطيق بعد أن حقق انتصارات كبيرة، وبذلك يكون قد فك العزلة عن روسيا من جهة الغرب (البلطيق).

استمرت الحرب نحو ست سنوات (١٥٥٨ – ١٥٦٣)، وهي تمثل المرحلة الأولى من الحرب الليفونية. وبعد انتهائها قام إيفان الرابع بعدة إجراءات في المناطق التي احتلها، ومنها[٦٤] : (١) الاستيلاء على المدن الصغيرة، دون الكبيرة، لتجريدها من مواردها الاقتصادية؛ (٢) التودد إلى السكان المحليين، ومنع أي تجاوز عليهم؛ (٣) بدأ باستغلال المشاعر الدينية والقومية عند سكان تلك المنطقة (وهم من الروس الأرثوذكس)، وقد ساعده ذلك في تحقيق انتصارات ساحقة على الليفونيين.

في هذه المرحلة من الحرب حلَّ الهدوء في ليفونيا، إلا انه لم يستمر طويلاً، إذ استأنفت روسيا عملياتها العسكرية، التي عرفت بالمرحلة الثانية من الحرب الليفونية.

٢ـ الحرب الليفونية (المرحلة الثانية):

بعد الهدوء الذي حل في ليفونيا في أعقاب توقف العمليات العسكرية، قام إيفان الرابع بإنشاء دولة تابعة له فيها[٦٥]، وجعل "ماغنوس"رئيسًا لها، بعد أن جاء به إلى موسكو وأقسم له بالتبعية والولاء. ومع ن تلك الدولة كانت لا تتمتع بصلاحيات كبيرة، إلا أن المدن التي كانت تابعة لها ظلت محتفظة باستقلاليتها[٦٦].

دعا إيفان الرابع إلى عقد مجلس للأقاليم (زيمسكي بور)، يضمُّ ممثلين عن البويار والدفوريان وعن الفلاحين وسكان المدن ورجال الدين، يستدعى عند اتخاذ قرار، وهو أسلوب شائع في روسيا خلال القرنين السادس والسابع عشر، لأخذ الآراء في ما يخصُّ الاستمرار في الحرب الليفونية أو إنهائها، ولكي لا ينفرد القيصر باتخاذ القرار. فكان رأي المجلس الاستمرار في الحرب والسيطرة على ليفونيا بشكل كامل.

في هذه المرحلة حدث في بولندا (التي تسيطر على جزء من ليفونيا) تطورات سياسية خطيرة ، وأهمها وفاة موت الملك "سيجسموند الثاني" (*Sigsmund II*) (١٥٣٠-١٥٧٢) ، فاجتمع مجلس "السيم"[٦٧]، لتعيين ملك جديد، فاختار هنري فالوا (أخو الملك الفرنسي شارل التاسع) ملكًا على بولندا (١٥٧٣-١٥٧٥). وبعد مدة قصيرة توفي الملك الفرنسي شارل التاسع وشغر العرش الفرنسي، فأصبح هنري فالوا أمام خيارين: إما أن يبقى في بولندا أو أن يذهب إلى فرنسا. إلا انه سرعان ما قرر الذهاب إلى فرنسا ليكون ملكًا عليها باسم هنري الثالث (١٥٧٥-١٥٨٩)، وبذلك أصبح عرش بولندا شاغرًا،

فأختار مجلس "السيم"ملكًا جديدًا لها هو "ستيفان باتوري" (*Stephen Bátory*) (١٥٧٦-١٥٨٦)، وهو قائد عسكري موهوب جدًا وقدير ومعروف في ترانسلفانيا. وكان لتنصيبه انعكاسات على روسيا، إذ بدأ يستعد بشكل مكثف لمحاربة روسيا، وهنا بدأت بوادر الحرب التي عُرفت بالمرحلة الثانية للحرب الليفونية (١٥٦٢ – ١٥٧١)، التي تمكن فيها "ستيفان باتوري" من تحقيق تحول في مجريات الحرب، وبمساعدة السويد، فاستعاد الجزء الأكبر من الأراضي التي استولت عليها روسيا[٦٨].

حققت مملكة بولندا ـ لتوانيا انتصارات كثيرة على روسيا التي أعلنت، بعد الخسائر التي منيت بها، الهدنة لمدة ثلاث سنوات. وتُعزى هزيمتها إلى الأسباب الآتية:

١- قوة الجيش البولندي ـ اللتواني، الذي اثبت قوته من خلال تكاتف مقاتليه وتوحدهم؛

٢- انضمام السويد في الحرب إلى جانب محور بولندا ـ لتوانيا.

٣- إن الموقف الدولي لم يكن في صالح روسيا، فكثير من الدول الأوربية لا تميل إلى السماح لروسيا بامتلاك منفذ على بحر البلطيق، طالما كان ذلك يضرُّ بمصالحها الاقتصادية والسياسية. ومن الدول التي وقفت في وجه الطموحات الروسية كلٌ من السويد، الدنمرك، وإمارات ألمانيا، وحتى انكلترا واسبانيا، فضلاً عن بولندا ولتوانيا.

٤- إلى جانب الموقف الأوربي ضد روسيا، كان إيفان الرابع قد عزا الفشل في التراجع والانكسار في هذه المرحلة من الحرب إلى[٦٩]:

أ-خيانة البويار، ولاسيما القائد العسكري الأمير "اندريه كوربسكي" في ليفونيا؛

ب-معارضة البويار الداخلية التي تسببت بانشقاقات خطيرة داخل حكومة موسكو؛

ج- قيام تتار القرم، بتحريض من الدولة العثمانية، بغارة كبيرة وصلت حتى حدود موسكو ودمرت جميع المدن التي مرت بها.

د- قوة الجيش السويدي الذي اشترك في الحرب إلى جانب القوات البولندية اللتوانية.

استمر الجيش البولندي ـ اللتواني بالتقدم والاستيلاء على الأراضي الروسية. ولولا صمود مدينة بسكوف لتمكن المقاتلون المجريون (وهم اقتحاميون أشداء استخدمهم ستيفان في جيشه) من الاستيلاء عليها. فبفضل حنكة القائد العسكري الروسي "ڤاسيلي شويلسكي"، تمَّ إنقاذ المدينة، إذ كان للروس ذخيرة كبيرة للمدفعية تحت أسوارها، إذ امر شويلسكي جنوده بتفجير هذه الذخيرة، مما أدى إلى تراجع البولنديين، وبقاء المدينة تحت سيطرة الروس. وبذلك تمَّ عقد معاهدة بين الطرفين نصت على: (١) تخلي روسيا عن الأراضي استولت عليها في بولندا ولتوانيا خلال المرحلة الأولى وبدايات المرحلة الثانية من الحرب؛ (٢) انسحاب كل طرف إلى أراضيه قبل نشوب الحرب.

وكان من نتائج هذه الحرب فشل روسيا في تحقيق أي هدف في هذه الحرب، وخسارتها كل شيء من جهة، إلى جانب انضمام السويد إلى جانب بولندا في الحرب، فاستغلت الفرصة وضربت ميناء "ناروفا" وسيطرت عليه، فاضطرت روسيا ان تعقد معها معاهدة تخلت بموجبها عن منافذها المطلة على ساحل فنلندا.

بعد تلك المعاهدات والخسائر التي منيت بها روسيا دخل المجتمع الروسي في مشكلة جديدة عرفت بـ "الابرتشنينا" (*Oprichnina*).

ثالثًا: الابرتشنينا (*Oprichnina*)

كلمة "الابرتشنينا" تقابل كلمة "كرومي" باللغة الروسية الحديثة، وهي مشتقة من الكلمة الروسية القديمة "اوبريتش" (*Oprich*)، وتعني ما عدا أو باستثناء. وهي مرحلة من المراحل التي مر بها المجتمع الروسي[٧٠]. وكانت تطلق سابقًا على الإقطاع الذي يتركه الأمير الكبير ميراثًا لأرملته، أما في عهد إيفان الرابع فقد اختلفت معناها وأصبحت تعني شيئين[٧١]: (١) الإقطاع الذي يملكه ويحكمه القيصر؛ (٢) السياسة الداخلية لحكومة القيصرفي المدة مابين سنتي (**١٥٦٥ – ١٥٧٣م**) التي تخص توزيع الأرض.

مرت روسيا بظروف أدت إلى قيام الابرتشنينا، وأهمها الشقاق الذي دبَّ بين إيفان الرابع ومعظم مجلس الرادا المختار بشأن ما جرى في الحرب الليفونية، ولاسيما في المرحلة الثانية، حينما تشجع البويار (الذين حاولوا استعادة نفوذهم السابق) على معارضة التوجه السياسي الجديد بجدية أكبر، وعدّوا الحرب الليفونية حربًا خاسرة، لأنها لا تحقق مصالحهم، ولا تخدم سوى للتجار، فأرادوا التوسع باتجاه الجنوب ضد خانية القرم والدولة العثمانية لحماية أراضيهم وممتلكاتهم[٧٢]. لذلك استخدم القيصر سياسة الشدّة ضدهم، لكنها أدت إلى تأزيم الوضع أكثر. وإن ازدياد عمليات الخيانة من جانب البويار، والفشل الواضح في الصراع العسكري على الجبهة الليفونية، ادت الى الحاجة إلى تعبئة كل القوى في البلاد لتحقيق الخطط الشاملة في نطاق السياسة الخارجية.

وأدت ثلاثة عوامل إلى هرب القيصر من العاصمة: (١) إن البويار والأمراء لم يكونوا راضين عن دخول روسيا في الحرب الليفونية، فزادت نقمتهم عليه، ونظّموا العديد من المؤامرات ضده[٧٣]؛ (٢) اتحاد لتوانيا مع بولندا[٧٤]، بموجب اتفاقية "لوكلين"، وسميت الدولة الناشئة عن الوحدة "ريجبسبيته"، أي "الجمهورية"؛ و(٣) قيام خان القرم في الوقت ذاته بغزو روسيا من جهة الجنوب[٧٥]. ونتيجةً لذلك، هرب القيصر في يوم ١٣ كانون الأول (١٥٦٤) مصطحبًا عائلته وأكثر البويار والوزراء ثقةً، وأخذ كنوزه مع قوة صغيرة من الجنود، إلى قرية "الكسندروفسكايا" النائية[٧٦]. وهناك اعتزل الحياة السياسية، وبعث رسالتين إلى موسكو: الأولى موجهة إلى المطران "أفاناسي" (هو أعلى سلطة دينية في موسكو)[٧٧] اتهم فيها البويار بالخيانة، والثانية موجهة إلى تجار وحرفيي موسكو قال فيها: "إن غضبه ليس موجهًا إليهم، وإنهم ليسوا مطرودين من عطفه"[٧٨].

سببت الرسالتان رعبًا في أرجاء موسكو، وأعلن تجارها وحرفيوها ومؤيدوهم بأنهم على استعداد لتصفية الحساب مع الخونة لو لم يترك القيصر العاصمة. لذلك، طلب البويار والأمراء والدفوريان في المدن الأخرى من المطران أن يتوسل القيصر ألاّ يترك دولته، وأن يحكمها كما يشاء. وأرسل المطران افانسي والبويار والأمراء عدة وفود إلى قرية "الكسندروفسكايا" حتى عدل القيصر عن رأيه في البقاء في القرية، ووافق على العودة بشرط أن يحكم ضمن حاشية جديدة، وأن يُمنح سلطة غير محدودة، وكان يهدف من ذلك إلى القضاء على من يعدَّهم خونة، فوافق الجميع على ذلك، وعاد القيصر إلى موسكو. كل ذلك دعاه إلى تبني إجراءات حاسمة، من أهمها تقسيم البلاد على قسمين، قسمٌ يملكه ويحكمه بنفسه، أما القسم الآخر فيملكه البويار والأمراء ومَن يعينهم بنفسه، وكما يأتي:

قام القيصر إيفان الرابع بإنشاء جهاز حكومي تأديبي موجه ليس ضد البويار فحسب، وإنما ضد الشعب الروسي أيضًا، وسُمي كما ذكرنا "الأبرتيشنينا"، وسُمي مَن يقوم بتنفيذه وإجراءاته من قوات إيفان الرابع الخاصة "الابرتشنيكي" (*Oprichniki*)، أي الأراضي المختارة المستثناة من لدن القيصر، الواقعة في المناطق الوسطى والشمالية، وهي أكثرها سكانًا وتطورًا من الناحية الاقتصادية، بل هي أفضل الأراضي وأخصبها. أما القسم الآخر من الأراضي التي يمتلكها ويحكمها البويار ومَن يعينهم القيصر، فكانت على الأغلب أراضي الإطراف، وهي أقل أهميةً من أراضي القسم الأول، وأُطلق عليها اسم "زيمتشينا" (*Zemshcina*)، أي "إقليمي" أو "محلي"[٧٩].

نشأت دوائر "الأبرتشنينا"، وتمَّ تأسيس جيش خاص بها من "الدفوريان"، وكان رجال "الأبرتشنينا" يُقسمون للقيصر بأنهم سيخدمونه بإخلاص وسيكافحون أعداءه، وكانوا يرتدون ملابس خاصة، وهي عبارة عن بزّة من قفطان اسود وقبعة، ومجهزين بأسلحة نارية وخيل وكلاب خاصة وجعبة سهام، وكانوا يضعون على سروج خيولهم رمزًا على شكل رأس كلب ومكنسة (مقشة) ترمز إلى استعدادهم لقرض الخيانة وكنسها من الدولة. وكان الهدف من وراء ذلك هو القضاء على أعداء القيصر. ولكن تلك الأمور استرعت انتباه الناس إلى "الأبرتشنينا" وإجراءاتها أكثر من جوهرها الحقيقي. وبمرور الوقت توسعت أراضي "الأبرتشنينا" على حساب أراضي "الزيمتشينا"، إذ أخذ القيصر الأراضي الموروثة والقريبة والخصبة له، وأعطي البويار والأمراء مكانها إقطاعًا آخر غير موروث، لينقلهم إلى مكان بعيد ليقطع صلتهم بإقطاعياتهم القديمة، وهي خطوة حاسمة للقضاء على نفوذهم. أما عقاراتهم فقد تمَّ توزيعها على الملاكين العقاريين والدفوريان المخلصين للقيصر مقابل شروط معينة، ولم يترك في الأماكن القديمة من البويار غير مَن أبدى موافقته على خدمة القيصر بأمانة وإخلاص وأثبت ذلك[٨٠].

أثارت تلك الإجراءات سخط الكثير من الأمراء، مما دعاهم إلى القيام بعدة مؤامرات ضد القيصر. وكانت أولها مؤامرة بقيادة ابن عمه، الذي خطط لقلب نظام الحكم والقضاء عليه. إلا أن القيصر اكتشف المؤامرة بوساطة أعوانه ومساعديه، فقبض على الفاعل وأسره وسجنه حتى توفي في سجنه، ففرَّ البويار والنبلاء الآخرون إلى مدينة "نوفغورد" (*Novgorod*)، التي كانت تعاني من الخضوع لإمارة موسكو،

وسعوا إلى حياكة مؤامرة ضد القيصر، إلا أنه تمكن من إحباطها والقضاء عليها وضرب المدينة بالمدفعية وقتل الآف المتآمرين، وبعضهم من أصدقائه.

أدت تلك الأمور والاضطرابات إلى إضعاف الدولة الروسية، وظهور أطماع الدول الاجنبية فيها، مثل خانية القرم والدولة العثمانية، وكذلك الدول الأوربية المتحالفة ضده في المرحلة الثانية من الحرب الليفونية. فقد تقدم خان القرم بحملة عسكرية في عام (١٥٧١) إلى موسكو وخرّب جميع المدن التي مرَّ بها وحرقها، وكانت الحملة قوية باستطاعتها وأدت إلى نهب موسكو، حتى أن الكثير من الأراضي المحيطة بموسكو أُفرغت من سكانها[٨١].

أما الدول المتحالفة (بولندا ولتوانيا والسويد) فقد تمكنت من الانتصار على قوات روسيا، فانتبه إيفان الرابع إلى خطورة الموقف، واضطر إلى تعديل نظام "الأبرتشنينا"، فألغى في عام (١٥٧٢) "الابرتشنيكي" بعد أن ثبت فشلهم في الدفاع عن موسكو، وسعى في آخر المطاف إلى إنهائهم والقضاء على تنظيماتهم[٨٢].

لقد كانت "الأبرتشنينا" (١٥٦٥ – ١٥٧٢) إحدى الظواهر الغريبة في التاريخ السياسي والاجتماعي والروسي، التي أدت إلى ضعف نظام الحكم في روسيا.

تحويل الفلاحين إلى أقنان

كان الفلاحون الروس يؤلفون الجزء الأساسي من المجتمع الروسي، وكانت حياتهم قاسية وبائسة، فقد كانوا يعيشون في أكواخ متزاحمة مظلمة بسيطة الأثاث، وكانوا يغطون نوافذها الصغيرة بمثانات الثيران بدلاً من الزجاج، وكانوا يستخدمون المشاعل من أعواد الخشب لإضاءة الكوخ مساءً.

كان الفلاحون يزرعون أراضي القيصر والبويار والأمراء والملاكين وأراضي الكنيسة، وكانوا يحرثونها بالمحراث الخشبي كالسابق، ويحصدون المحصول بالمنجل ويدرسون الحبوب بالمدقات[٨٣]. إلا أن أصحاب الأرض لم يكونوا يكتفوا بذلك، وإنما طالبوا الفلاح بتقديم جزء من منتجاته الغذائية أيضًا، مثل الحبوب، السمن، البيض، اللحم، فاضطر إلى الانتقال إلى أرض أخرى، ومن صاحب أرض إلى صاحب أرض آخر للبحث عن سيد منصف أو عادل، فأحدث ذلك إرباكًا لدى الملاكين. ولذلك، وضع القيصر، بناءً على طلب أولئك الملاّكين، قاعدةً تقضي بمنع جميع الفلاحين من ترك أصحاب الأراضي الذين يعملون عندهم إلا بعد إنهاء أعمال الحقل في بداية فصل الشتاء، ولا يحق للفلاح أن يترك سيده إلا بعد أن يدفع ما يسمى "بدل إخلاء"، أي أجرة سكنه في ذلك الكوخ البسيط الكائن في أرض الملاّك. وكان هذا في غاية الصعوبة على الفلاح، لأنه لا يمتلك شيئًا. فاستغل الملاّكون هذه الفرصة وبدأوا يعدون الفلاحين بالوعود الكثيرة، ومنها دفع بدل الإخلاء والديون الأخرى بدلاً عنهم[٨٤]، مقابل العمل في أراضيهم. وكان الفلاح يظنُّ أو يأمل أن يكون العمل في المكان الجديد أسهل أو أفضل من عمله السابق، لكنه كان واهمًا، لأن الأنظمة كانت واحدة في كل مكان[٨٥].

وبسبب استمرار انتقال الفلاحين من مكان إلى آخر، اتخذ القيصر قرارًا في عام (١٥٨١) يقضي بمنع تنقلات الفلاحين بين أرض وأخرى، وبذلك قيَّدهم بالأرض التي يعملون بها وجعلهم أقنانًا، وتعذر

على الفلاحين وعلى زوجاتهم وأولادهم مغادرة الأرض التي يعملون بها وأُجبروا على البقاء والعمل لصالح الملاّك فيها.

كان لقرار تحويل الفلاحين إلى أقنان نتائج سلبية خطيرة أهمها هروب الفلاحين من الملاكين والأرض التي كانوا يعملون فيها، واختفائهم في الغابات، وانتظامهم في ما بعد في فصائل، ومن ثمَّ الإغارة على مضطهديهم. وهنا أصبحت الدولة مشغولة بمطاردتهم وملاحقتهم، فهربوا إلى مناطق بعيدة ولاسيما نهر الدون. وكانت هناك أراضٍ خالية من الملاكين والبويار، فأصبح الفلاحون الأقنان أحرارًا رغمًا عن الملاكين وعن الدولة[٨٦]، وأطلق عليهم اسم "القوزاق"[٨٧].

انجازات إيفان الرابع:

١- قام القيصر إيفان الرابع بإلغاء عمل المسؤولين الإداريين الذين كانوا يقيمون في المحاكم ويفرضون الضرائب ويأخذون أجورهم من أصحاب الشأن، وسُمى هذا النظام بنظام "الإطعام"، وحصر تلك الصلاحيات بأشخاص منتخبين يتقاضون رواتبهم من الدولة.

٢- على الرغم من شدته وقسوته، إلا أنه أصدر قرارات وأوامر جديدة، كان أغلبها في صالح الشعب الروسي. ونصّت تلك القوانين على مساعدة الفقراء ضد الأغنياء، وتبني خطوات لتحسين تعليم رجال الدين[٨٨].

٣- الإصلاح في الجانب العسكري، إذ قام بتطوير أساليب التدريب في وحدات الجيش وتحديث تسليحه وتقسيمه على وفق الأسس الإقطاعية، كما اهتم بسلاح المدفعية التي كانت أرقى ما وصل إليه فن التسليح العسكري.

٤- سعى جاهدًا لجعل روسيا تحت إدارة إداريين لا يتقيدون بالأساليب القديمة البالية لامتلاك ناصية الحضارة. وقد نجح معظم مفاصل القيادات الإدارية[٨٩].

٥- شجع الفن والكتابة والأدب ولاسيما ما يتعلق بالديانة النصرانية الأرثوذكسية، وبالأديار ووقائع التاريخ. ولم يكن نفسه، كما تدل رسائله، دون كُتّاب عصره براعةً وقوة[٩٠].

٦- وفي ميدان العمارة الدينية وروعتها، فقد بنى كنيسة بازل المبارك، التي تعد أروع نتاج فني روسي في ذلك العصر[٩١]، كما رحب بالمهندسين والبنائين ورجال المدفعية وبناة السفن الانكليز أيضًا[٩٢].

٧- حدد صلاحيات جماعة المقبِّلين (الذين يقبِّلون الصليب عند انتخاب الشخص في منصب معين)، ومنحهم صلاحيات واسعة.

صفاتـــــه

لُقِّب إيفان الرهيب بـ (*Terrible*) لشدته وقسوته مع أتباعه وغيرهم. وسمي أحيانا المرعب (*Awesome*)، وهو الأصح بحسب الترجمة الصحيحة للفظة (*Groznyi*) الروسية. وقد تلقَّب جده إيفان

الثالث بهذا اللقب كذلك[٩٣].

كان في نظر معاصريه قاسيًا محبًا للانتقام بشكل يدعو إلى الاشمئزاز، وقاضيًا لا يعرف الرحمة، ذا مزاج سريع الانفعال، أكسبته الوراثة والبيئة عنفًا. ويقال أنه بعد أن أكمل بناء كاتدرائية باسيل استدعى المهندسين الذين شيدوها وأمر بسمل عيونهم لئلا يبنوا لأحد كنيسة مثلها[٩٤].

- ويقول شاهد عيان من الذين يحضرون مجالسه إنه كان يرغي في فمه كما يفعل الحصان، نتيجة أدنى مضايقة أو انزعاج[٩٥].

- كان ايفان الرابع شديد الولع بالمعرفة منذ صغره لذلك كان يحب المواكبة على الدرس والتحصيل بحماسة، وجعل من نفسه أحسن متعلم من غير رجال الدين في بلده وزمانه، وقد انغمس مرة في مناقشة عامة في الكرملين مع كاهن لوثري من بوهيميا. ومع أنه أعنف القياصرة، إلا أنه أدار المناقشة بلياقة أكثر مما بدا في النزاعات الدينية في ألمانيا المعاصرة[٩٦].

- اتّسم بروح المرح والدعابة، وكان يضحك بملء شدقيه، وغالبًا ما كانت ابتسامته تنمُّ عن دهاء مخيف[٩٧].

- كان يفرط من الشراب وحياة والمجون، فأصبحت انفعالاته غير متزنة، وكان يميل إلى العنف[٩٨]. وأقام أكثر من مذبحة حتى للأهالي. ففي إحدى المذابح، بعد أن كشف مؤامرةً ضده في عام (١٥٧٠)[٩٩]، أحدث مذبحة ضد الأهالي استمرت خمسة أسابيع. وفي بعض الأحيان كان خمسمائة شخص يذبحون في اليوم الواحد، حتى أن البيانات الرسمية أعلنت أن عدد القتلى في تلك المذبحة بلغ نحو (٢٧٧٠) شخص. فاحتج على انهم ليسوا سوى (١٥٠٥). كما أحرق بعض حوانيت التجار بعد أن تبيَّن أنهم اشتركوا في المؤامرة[١٠٠].

- كان مسيحيًا أرثوذكسي المذهب، كان لا يتأخر بالصلاة على أي كاهن أو راهب عندما يموت[١٠١].

- ومن صفاته أيضًا إنه كان لا يسيطر على نفسه أحيانًا، فكان يصدر أوامر تتناقض وتتنافى مع جميع إصلاحاته السابقة. وعدم الاتزان هذا يفسر لنا اعتلال عقله. ولكن السبب الحقيقي لهذه الحالة الضغوط المحيطة به، من ثورات النبلاء والحرب الليفونية بمرحلتيها[١٠٢].

- من تناقضاته أنه أجبر حراسه على ارتداء بزات سوداء، وهي لباس الكهنة وقلنسوات ضيقة، وأطلق على نفسه لقب رئيس الرهبان. وكان يرتل مع فرقة المرتلين ويشهد معهم القداس يوميًا، وكان كثير السجود أمام المذبح، حتى تكررت إصابات جبهته بالكدمات[١٠٣].

موت إيفان الرابع:

في عام (١٥٨٢) تعرض إيفان الرابع إلى مأساة أخرى، إذ ظهرت زوجة ابنه إيفان إيفانوفتش، ايلينا، بملابس غير لائقة، فانتقدها وعنّفها. ويقال أن ابنه سمع زوجته تصرخ وهي حامل في شهرها السابع . وعندما أتى لاستطلاع الأمر وجد والده يضربها بالسوط لشدة انفعاله. فحاول الابن إيقاف والده

وتهدئته. وفي ذروة غضبه تناول إيفان آلة معدنية وضرب بها ابنه على رأسه، الأمر الذي تسبب في موته دون قصد، فجنَّ جنون إيفان ندمًا[١٠٤]، حتى أنه كان يقدم تنحيه عن العرش صباح كل يوم، ولكن أعضاء المجلس كانوا يرفضون ذلك ويعملون على تهدئته[١٠٥].

كان إيفان إيفانوفتش هو الوريث القادر، ولم يبق للقيصر سوى الابن الأحمق، "فيودور" (Vidor) وريثًا للعرش، الذي حكم فيما بعد بين عامي (١٥٨٤ – ١٥٩٨م)، وهو آخر حكام أسرة روريك (Rorik)[١٠٦]، في سلسلة امتدت سبعة قرون. أما الابن الثاني، ديمتري، فقد عدَّ ابنًا غير شرعي، لأن والدته كانت الزوجة السابعة للقيصر (والكنيسة لم تكن تسمح إلا بثلاث زوجات، ولم تعترف بأي من زوجات إيفان الأخريات).

بعد سنتين من مقتل ابنه إيفان ايفانوفنتش عاش إيفان الرابع بصراع مرير مع نفسه ندمًا على قتله، الأمر الذي أفسد عليه حياته في سنيه الأخيرة[١٠٧]، وكان شعره قد تدلى وتحولت لحيته إلى اللون الأبيض، وهي علامات التوتر النفسي الكبير. وفي ١٨ آذار (١٥٨٤) توفي في موسكو وهو يلعب الشطرنج مع بوريس كودنوف. وانتشرت الشائعات تتهم كودنوف بأنه دسَّ له السم[١٠٨]. ويقال أن الفحص الشرعي السوفيتي كشف سبب وفاته أنه قد تناول الزئبق كدواء بعد إصابته بمرض غريب أدى إلى تورم جسده، وانبعاث رائحة نتنة منه[١٠٩]. ويقال أن مرضهُ النفسي غير معروف تمامًا.

حكم إيفان الرابع أربعًا وخمسين عامًا، وقد بدأ كملاك وانتهى شريرًا. ويشاع أنه مات مسمومًا. وبعد موته دفن في ثياب كاهن أملاً بأن يحصل على عفو وأن تغفر خطاياه[١١٠].

الخاتمـــة:

كان القيصر إيفان الرابع علامة مميزة في التاريخ الروسي وهو واحدًا من كثيرين ممن تفوقوا في كثير من مجالات الحياة في روسيا، وقال عنه المؤرخون انه : " اعتقل تاريخ روسيا في القرون الاولى بشخصه " ويتضح ذلك من خلال:

١- إنه جعل روسيا إمبراطورية كبيرة بعد ضم الأراضي غير الروسية في منطقة الفولغا (قازان، استرخان، سيبيريا) والمناطق الواقعة شرقي نهر الفولغا في جبال الاورال وسيبيريا. وفي عهده أصبحت روسيا قوة كبيرة في المجالين الاقتصادي والعسكري، ودولة مهابة، مترامية الأطراف، متعددة القوميات والأديان والأعراق.

٢- ، بعد صراع مرير طوال مدة حكمه مع البويار والأمراء والنبلاء، تمكن أن يخضعهم ويحجِّم نفوذهم بشكل كامل لسلطته، وفرض على أتباعهم الخدمة العسكرية، ولم يستطيع أحد أن ينافسه على السلطة.

٣- سعى إلى محاربة التجزئة الإقطاعية، وإلى بناء امة قوية.

٤- تمثلت سياسته في مركزية السلطة، فكانت له ملكية مطلقة في روسيا، إذ ملك جميع الامتيازات والصلاحيات وسيطر على كافة السلطات، وأمسك دفة الحكم بيديه وتصرف بمشيئته، فأصبحت روسيا في عهده دولة بوليسية.

٥- كانت طاقته موجهة نحو البناء والتأسيس، فقد كانت هناك أولويات التنظيم والتنسيق والتأكيد على النظام الشرعي والقضاء على الفساد في الحكومة المحلية والكنيسة والجيش.

٦- يتضح أنه كان شخصية مضطربة وغير منتظمة، لأن الوساوس والهواجس كانت مسيطرةً عليه.وسمي بالرهيب أو المرعب لارتكابه عددا كبيرا من المجازر الوحشية ضد مواطنيه وغيرهم، وكانت لديه أساليب خاصة وغريبة في التعذيب.

٧- بسبب السلوك الخشن والقسوة المفرطة التي تعرض لها على يد البويار في طفولته، كان يتصرف أحيانا بطريقة لا تتناسب مع انجازاته الكبيرة.

٨- بدأت مرحلة اجتماعية جديدة في ظل حكم إيفان الرابع هي تحويل الفلاحين إلى أقنان، مع أن المجتمع الروسي قد تغير تغيرًا جذريًا خلال مدة حكمه.

٩- كانت الحرب الليفونية من أكبر أخطائه، حتى أن البلاد أُصيبت بالشلل الاقتصادي في تلك المرحلة، مما أدى إلى إخفاقه وخسارته الحرب.

الملحق[١١١]

الأمراء والقياصرة الذين حكموا روسيا حتى عام ١٩١٧

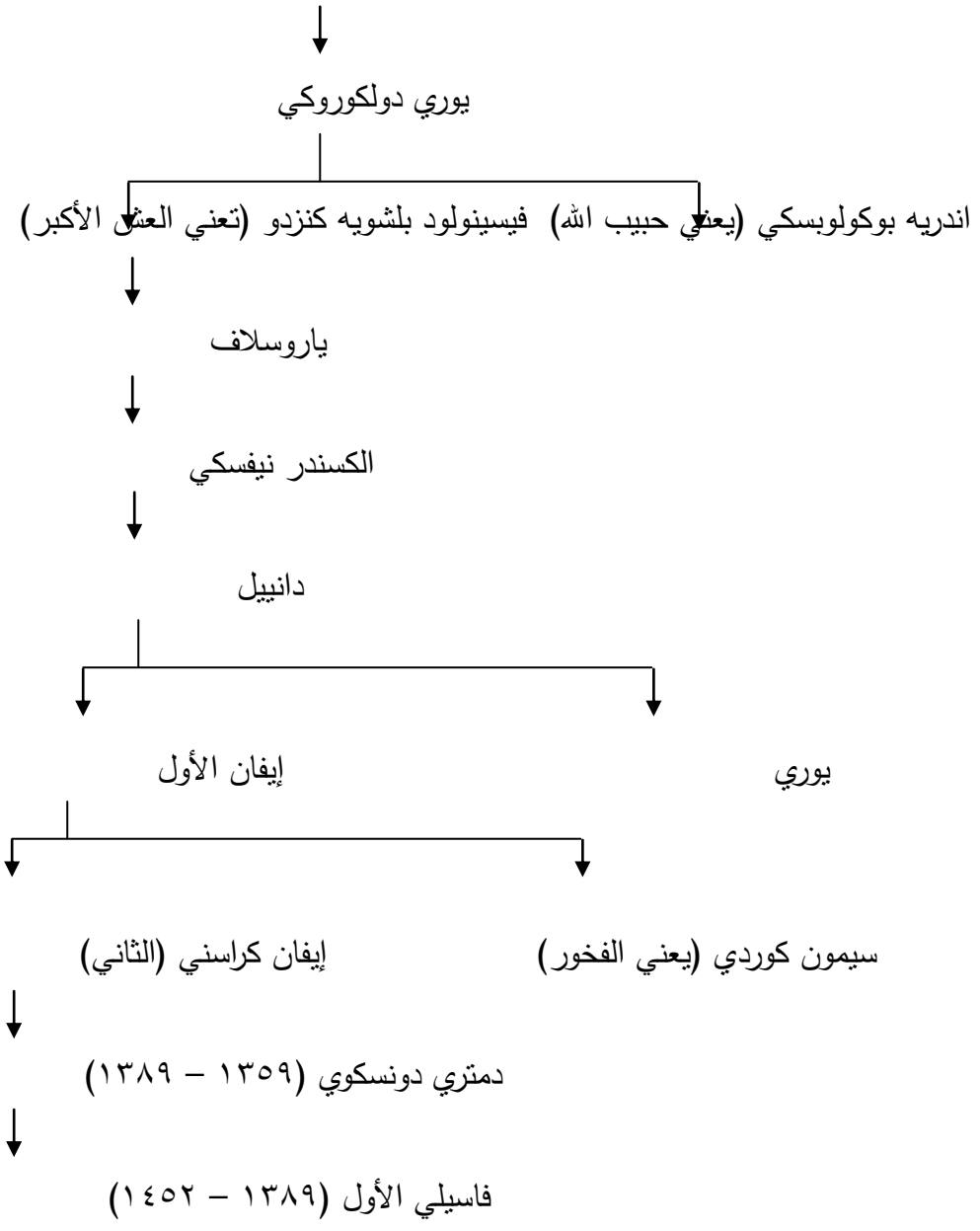

↓

فاسيلي الثاني (يتومني) الأعمى
(١٤٢٥ – ١٤٦٢)

↓

إيفان الثالث (١٤٦٢ – ١٥٠٥)

↓

* إلى حد فاسيلي الثالث كان اللقب هو الأمير الكبير.

فاسيلي الثالث (١٥٠٥ – ١٥٣٣)

↓

** بدل اللقب إلى (تسار) أي القيصر الروسي فقط في عام ١٥٤٧.

إيفان الرابع (الرهيب) (١٥٣٣ – ١٥٨٤)

↓

هنا انتهى حكم أسرة روريك

فيودور (١٥٨٤ – ١٥٩٨)

↓

هو من غير أسرة روريك

بوريس كودونوف (١٥٩٨ – ١٦٠٥)

↓

دمتري الدعي الأول (١٦٠٥ – ١٦٠٦)

↓

فاسيلي شويسكي (١٦٠٦ – ١٦١٠)

↓

مجلس البويار السبعة (١٦١٠ – ١٦١٣)

↓

ميخائيل رومانوف ابن فيودور (١٦١٣ – ١٦٤٥)

↓

الكسي (١٦٤٥ – ١٦٧٦)

↓

فيودور (١٦٧٦ – ١٦٨٢) إيفان الخامس بطرس

↓

بطرس الأول (١٦٨٢ – ١٧٢٥) حول العاصمة إلى سانبطرسبورغ وحول لقب التسار إلى الإمبراطور عام ١٧٢١.

من سنة ١٦٨٢ حتى سنة ١٦٨٩ كان تحت وصاية أخته صوفيا.

↓

كاترين الأولى (١٧٢٥ – ١٧٢٧) زوجة بطرس الأول.

↓

بطرس الثاني بن الكسي (١٧٢٧ – ١٧٣٠)

↓

أنا ايفانوفنا (١٧٣٠ – ١٧٤٠)

↓

إيفان انطونوفج (١٧٤٠ – ١٧٤١)

↓

إليزابيث بنت بطرس الأول (١٧٤١ – ١٧٦٢)

↓

بطرس الثالث بقي عدة شهور، وهو بن أنا بنت بطرس الأول (كان أحمق).

↓

كاترين الثانية (١٧٦٢ – ١٧٩٦) زوجة بطرس الثالث قامت بانقلاب ضده.

↓

بافل الأول (١٧٩٦ – ١٨٠١) كان ناقم جداً على أمه لأنها كانت تعشق الرجال كثيراً فأصدر قرار يحرم على المرأة اعتلاء العرش.

↓

الكسندر الأول (١٨٠١ – ١٨٢٥)

↓

نيقولا الأول (١٨٢٥ – ١٨٥٥) هو أخو الكسندر الأول (حدثت في زمانه ثورة الديسمبريين).

↓

الكسندر الثاني (١٨٥٥ – ١٨٨١) اغتيل من قبل جمعية إرادة الشعب (الشعوبيون) واشترك اليهود في عملية الاغتيال

↓

الكسندر الثالث (١٨٨١ – ١٨٩٤)

↓

نيقولا الثاني (١٨٩٤ – ١٩١٧)

قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧.

الهوامش والتعليقات

(١) زوجته الأولى كانت روسية اسمها سالومي لم تنجب له أولادًا خلال عشرين سنة من الزواج مما اضطره للزواج بثانية، ينظر:

Natalia Pushkereve, *Women in Russian History From tenth to the Twentieth Century*, New York, 2000, p.65-67.

(٢) رولان مولسنييه، تاريخ الحضارات العام، نقله إلى العربية يوسف اسعد دانمر وفريد م.دانمر، المجلد الرابع، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٦، ص١٧٤. وينظر الملحق رقم (١) تسلسل الأمراء والقياصرة والاباطرة الروس.

(٣) وهو اللقب الذي يطلق على النبلاء في روسيا وكبار ملاكي الارض.

(٤) محمد فؤاد ابراهيم وآخرون، "إيفان الرهيب قيصر روسيا"، مجلة المعرفة، المجلد الثالث، **مطبعة داغر** ، لبنان، ١٩٧٩، ص٣٨٤.

(5) Kazimierz Waliszewski, *Ivan The Terrible*, London, 1904, p.117.

(6) Ibid., p. 119.

(٧) محمد فؤاد وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٨) ول وابريل ديورانت، موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد علي أبو درة، دار نوبلس للنشر، المجلد ٣٨، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٧.

(٩) المصدر نفسه، ص١٨.

(١٠) كلمة مشتقة من اللقب الإمبراطوري الروماني "قيصر" (*Caesar*).

(١١) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص٤٤٤.

(١٢) فكرة تقول أن حق الأمير الروسي في الحكم مستمد من الله مباشرة. وقد طور هذه الفكرة رئيس دير رهبان في فولوكولامسك الأرثوذكسي الروسي جوزيف في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، إذ كان مؤيدًا للحق الإلهي للملوك، وهي ما تسمى اليوسفية، أي إخضاع السلطتين الزمنية والدينية تحت مسؤوليته، ينظر:

Edward Smallwood, *The Czar Ivan Vassilievich The Terrible*, London, No Date, p.8-10.

(١٣) وهي من أسرة رومانوف المشهورة القديمة في موسكو. وهذه الأسرة تحتفظ بلقب أميري. ومع أنها ابنة أرملة إلا انه اختارها لجمالها. محمد فؤاد إبراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨٤؛

Natalia Pushkereve, Op. Cit., p.69.

(١٤) كانت الكنيسة تسمح للرجل بالزواج ثلاث مرات، لكن إيفان الرابع استثنى نفسه من ذلك القانون، واتخذ له في الكرملين أكثر من ألف محضية، مع أنه كان متزوجا من ستة أو سبعة نساء، وكان مصير كل من يطلقها أما القتل أو النفي إلى دير نساء معزول. ويذكر انه تزوج امرأة شيشانية في غاية الجمال اسمها ماريا وكان هذا الزواج من قبيل المصاهرة السياسية للتقرب من الشيشانيين وساعيا لمعرفة سر صلابتهم واساليبهم في القتال . أسميه جانو ، موسوعة الألف عام شخصيات صنعت التاريخ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٥١؛

http:/khatab.38.wordiress.com.p. 2.

(١٥) عند خروج القيصر والقيصرة من الكاتدرائية معًا، وزع القيصر كثير من الهبات والهدايا، وكان قد أعدّ لها سرير العرس أمام الناس، فأضطجع العروسان الملكيان على السرير علنًا امام الجمهور الحاضر للتهنئة. ينظر ستيفن غراهام، إيفان الرهيب أول القياصرة، ترجمة يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦، ص٤٤.

(١٦) ديورانت، المصدر السابق، ج٣٨،ص١٨.

(١٧) كان هذا الحريق الثالث، إذ اندلعت النيران أول مرة في موسكو في ١٢ نيسان (١٥٤٧)، وتم اطفاؤها، ثمَّ عادت فاشتعلت ثانية في العشرين من الشهر نفسه وأطفئت أيضًا. وكان الحريق الثالث في حزيران، وهو أخطر بكثير من كل ما سواه، إذ ذهب ضحيته سبعة عشر ألفًا من البالغين مع عدد كبير من الاطفال.لمزيد من التفاصيل ينظر:

Edward Samllwood, Op. Cit., p.56.

(١٨) هي إحدى القرى الجميلة القريبة من العاصمة موسكو.

(١٩) الدفوريان: نبلاء أدنى مرتبة من البويار، يملكون الأراضي ويؤدون التزاماتها، ثمَّ يرثها أبناؤهم الذين تفرض عليهم الالتزامات نفسها، وأن لم يكن للأب وريث تستعيدها الدولة.سامي صالح الصياد، "الأمير إيفان الثالث (١٤٦٢ – ١٥٠٥) ودوره في توحيد روسيا"، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة، العدد (٣٣)، السنة الحادية عشرة، بغداد، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م،ص١٧٠.

(20) G. H. Bolsover, *Ivan the Terrible in Russian Historiography*, London 1957, p.78.

(21) Ibid., p.79.

(22) Horace W. Dewey, *Jahrbücher für Geschichte Osteuropas*, Neue Folge, Bd. 14, H. 1 MÄRZ, 1966, p. 10.

(23) G. H. Bolsover, Op. Cit., 81.

(24) Horace W. Dewey, Op. Cit., p.13.

(25) G. H. Bolsover, Op. Cit., 81.

(26) Daniel H. Shubin, *A History of Russian Christianity*, New York 2004, p.203-206.

(27) G.H. Bolsover, Op.cit., 81.

(28) Ibid., p. 81.

(29) Ibid., p.82.

(30) K. Waliszewski, Op. Cit., p.124.

(31)Ibid., p.124.

(٣٢) قازان: إمارة أو خانية مسلمة تشكل مركز إقليم واسع يقع على نهر الفولغا وفي وسطه. أسسها المغول في منتصف القرن الثالث عشر. علي جودة صبيح المالكي، روسيا القيصرية في عهد الامبراطورة كاترين الثانية ١٧٦٢ – ١٧٩٦، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، ٢٠١٠، ص٧.

(٣٣) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص١٩؛

K.Waliszewski, Op. Cit.,p.157-160.

(٣٤) علي حسون، العثمانيون والروس، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص٥٨.

(٣٥) محاضرة عن تاريخ روسيا للأستاذ الدكتور هاشم صالح التكريتي، ألقاها على طلبة الدراسات العليا / الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٣/٦/٧.

(٣٦) كانت الحملة الأولى في ٢٤ تشرين الثاني (١٥٤٩)، لم يستطع إيفان الرابع ، رغم دخوله المدينة، الانتصار بسبب ذوبان الثلوج والأمطار الغزيرة، فاضطر إلى الانسحاب. ينظر: ستيفن غراهام، المصدر السابق، ص٥٨.

(٣٧) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٣/٧؛

K. Waliszewski, Op. Cit., p.157-160.

(٣٨) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص١٩.

(٣٩) المصدر نفسه، ج٣٨، ص١٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص١٩ – ٢٠.

(٤١) وتعني (إلهنا نحن نحمدك)، ينشد في المناسبات الاحتفالية عند النصارى.ينظر ستيفن غراهام،المصدر السابق، ص٩٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٩١.

(43) *The English Historical Review*, vol. 71, No. 280 Jul, 1956, pp. 485-486.

(٤٤) هاشم التكريتي،محاضرة القاها على طلبة الدكتوراه بتاريخ ٢٠٠٣/٦/٧.

(٤٥) كانت إمارة قازان (أحيانا تسمى خانيه) أقوى دويلات وخانات المسلمين في تلك المرحلة.

(٤٦) مساحة سيبيريا وحدها أكبر من مساحة قارة أوربا، إلا أن سكانها كانوا قليلي العدد.

(٤٧) الاتامان: هو رئيس الفصيل المسلح (المنتخب عادة) عند القوازق. وفي روسيا كان لقب "أتامان" يطلق على قادة الانتفاضات الشعبية. هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٧.

(٤٨) هوتيمو فيفتش:كان في مرحلة ما من قطاعي الطرق بل من زعمائهم، وبعد ذلك مجدته الكنسية الارثوذكسية، وضمته إلى قائمة القديسين. ديوارنت، المصدر السابق، ص٢٧.

(49) *The Historical Journal*, vol. 25, No. 2, Jun, 1982, p. 513.

(٥٠) الكسييف وكارتسوف،المصدر السابق ، ص٤٥ – ٤٦.

(٥١) علي حسون، المصدر السابق، ص٦٢.

(٥٢) كان سياسة القيصر إيفان الرابع تهجير السكان من المناطق الروسية النصرانية إلى المناطق الجديدة (الإسلامية) بحجة كثافة السكان في روسيا وحول موسكو إلى البلاد التي تفتقر للسكان.

(٥٣) وتسمى أيضًا القفقاس: وهي إقليم يقع ضمن سلسلة جبلية شاهقة الارتفاع يصل أعلى ارتفاع لها في قمة البروز نحو (٥٦٣٠م)، تصل بين البحرين الأسود وقزوين، وهي حد فاصل تقريبًا بين أوربا واسيا. ويبلغ طول تلك السلسلة الجبلية ما يقارب ١٢٠٠كم.مصطفى محمد الطحان، مستقبل الإسلام وبلاد ما وراء النهر، ط١، الكويت، ١٩٩٥،ص٧–٨.

(٥٤) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٧.

(٥٥) هو صهر القيصر فيودر كان مقربًا من القيصر إيفان الرابع، استلم عدة مناصب ادارية وعسكرية في عهده.

(٥٦) علي حسون، المصدر السابق، ص٥١.

(57) Nikita Romanoff and Robert Rayne , *Ivan the Terrible*, Maryland, 2002, p. 177.

(٥٨) كل ذلك جاء بعد ضعف وانحلال الاورطة الذهبية التي كانت تحكم اجزاء واسعة من روسيا.

(59) *The Historical Journal*, vol. 25, No. 2 , Op.Cit, p.514.

(٦٠) كانت قوة الفرسان الليفونية هي القوة المعادية لروسيا التي تتحكم بالمنافذ المطلة على بحر البلطيق.ينظر: رولان موسينيه، المصدر السابق، ص١٧٦.

(61) *Transactions of the Royal Historical Society*, Fifth Series, vol. 7, 1957, p. 71.

(62) Ibid, p.73.

(٦٣) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٢١؛ رولان موسنييه، المصدر السابق، ص١٧٧.

(64) *The Historical Journal*, vol. 25, No. 2 , Op. Cit, p.518.

(٦٥) قسمت ليفونيا على ثلاثة أقسام، كان القسم الأكبر تابعا لروسيا، وتقاسمت السويد وبولندة ما بقي منها.

(٦٦) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٧ .

(٦٧) هو أعلى سلطة تشريعية في بولندا، وهو يساعد الملك في الحكم، ويتكون من كبار الشخصيات من الأشراف والنبلاء ورجال الدين. ولنواب مجلس السيم حق الفيتو الحر الذي استطاع بموجبه كل نائب أن يلغي أي قرار يتخذه المجلس.

(٦٨) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٧ ؛ رولان موسنييه، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٦٩) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٧.

(٧٠) المصدر نفسه.

(71) *Transactions of the Royal Historical Society*, Op. Cit., p.78.

(٧٢) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٦/٢٢ ؛ رولان موسنييه، المصدر السابق، ص١٧٨.

(٧٣) كان مجلس الرادا المختار الذي ساعده في قضية الإصلاحات قد حُلَّ في هذه المرحلة، فقام أحد أعضائه، وهو "كوربسكي"، برفض موضوع سلطة القيصر المطلقة وقال إن القيصر يجب أن لا ينفرد بالحكم، بل عليه أن يستعين بالبويار، فاتهمه القيصر بالخيانة وردَّ عليه بأن سلطته مستمدة من الله، فهرب كوربسكي على الفور.

(٧٤) كان البويار يرون في ذلك مثلهم الأعلى لأن الإقطاعيين الكبار كانوا يتمتعون بحقوق كبرى، حتى حق انتخاب الملك في مجلس السيم.

(٧٥) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٢٢-٢٣.

(٧٦) هي من القرى البعيدة نوعًا ما عن موسكو، وتمتاز بجمال طبيعة وتنظيم جيد.

(٧٧) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٢٣.

(٧٨) المصدر نفسه.

(79) Horace W. Dewey, *Charters of Local Government under Tsar Ivan IV*, London 1966, p.13.

(80) Ibid., p.14.

(81) Ibid., p.16.

(82) *The Historical Journal*, vol. 25, No. 2, Jun, 1982, p. 519.

(٨٣) الكسييف وكارتسوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، دار التقدم، موسكو، ص٣٤.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٣٦.

(85) K. Waliszewski, Op. Cit., p. 183.

(86) Ibid., p. 183.

(٨٧) كلمة "قوزاق" هي من أصل عثماني، وتعني المحاربين الأحرار، كانوا يمتهنون الفلاحة ثمَّ هربوا من جور الملاكين وقسوتهم إلى مناطق نائية في روسيا مثل نهر الدنيبر والدون وغيرهما.حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٦٠.

(٨٨) محمد فؤاد ابراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص٤٩١.

(٩٠) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٢٨.

(٩١) لا تزال هذه الكنيسة قائمةً في أحد أطراف الميدان الأحمر بعيدًا عن الكرملين، وهي غاية في الروعة والإتقان الفني، وكذلك كاتدرائية (شفاعة العذراء) التي نسب إليها انتصاراته في قازان واسترخان، وحولها إلى سبعة معابد أخرى من الخشب، تعلوها قبة بصلية الشكل استعان في بناء ذلك وحتى تجديد الكرملين بمهندسين من أوربا ولاسيما المهندسين الايطاليين الذين تميزوا في فن العمارة. المصدر نفسه، ج٣٨، ص٢٨ – ٢٩.

(٩٢) محمد فؤاد ابراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٩٣) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٣٠.

(94) Nikita Romanof and Robert Rayne, Op. Cit, p. 179.

(٩٥) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٣١.

(٩٦) المصدر نفسه، ج٣٨، ص٢٧.

(٩٧) المصدر نفسه، ص٣١.

(98) Isabel D. Madariaga, *Ivan the Terrible First Tsar of Russia*, London 2005, p. 277-281.

(٩٩) تمثلت هذه المؤامرة بالتعاون بين مدينة نوفغورد الروسية ومدينة بسكوف البولندية لخلعه.

(١٠٠) ديوارنت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٢٥ – ٢٦.

(101) Isabel D. Madariaga, Op. Cit, p.281.

(102) Ibid, p.281.

(103)Ibid., p.282.

(104) Henri Troyat, *Ivan the Terrible*, New York 1988, p. 307.

(١٠٥) محمد فؤاد ابراهيم وآخرون، المصدر السابق، ٣٨٤.

(١٠٦) أسرة روريك: أسرة سويدية الأصل ينحدر منها أمراء روسيا وقياصرتها. استوطنت في مدينة نوفغورد أكبر المدن السلافية حينذاك، وبنت الدولة الروسية واتخذت من كييف عاصمة لها. انتهت الأسرة بوفاة القيصر فيودر، ينظر: مشعل مفرح ظاهر الشمري، روسيا القيصرية في عهد القيصر بطرس الاكبر ١٦٨٩ – ١٧٢٥، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٦، ص٩.

(١٠٧) عبدالوهاب الكيالي، المصدر السابق، ص٤٤٤؛ محمد فؤاد إبراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(١٠٨) ديورانت، المصدر السابق، ج٣٨، ص٣٠.

(109) Geoffrey Hosking, *Russia and Russians: A History, Cambridge*, Harvard University Press, 2004, p.549.

(110) Ibid., p. 549.

(١١١) هاشم التكريتي، المصدر السابق، ٢٠٠٣/٣/٣.